

فى أنفسمكم فإنكم معجزة : لقد كنتم صغارا ، ومن قبل لم تكونوا
شيئا مذكورا ، ثم وهب لكم الله العقل والقوة والجمال والرحمة ،
أشرف الصفات) .

* ومن أجمل ماقرأت فى هذا كذلك تحت عنوان (١) :

من دلائل قدرة الله

قصيدة لفضيلة الأستاذ الشيخ الصاوى شعلان - رحمه الله
تعالى - يقول فيها مشيرا إلى عظمة الخالق سبحانه وتعالى وتمس
شغاف قلوب المؤمنين الموحدين :

نشر الصبح على الدينا سنانه

وسقى الروض رحيقا من نداءه

واكتسى الروض من النور حلاه

الندى من فيض مَنْ ؟!

والضحى من نور مَنْ

* * *

(١) فى كتاب : مع الله ، نظرات فى الكون والحياة ، للاستاذ عبد الجواد
رجب . . . طبعة دار الاعتصام

أقبلت فى بَسْمَةِ الفجر الطيورُ
تسكب الألحان عطرا فى الزهورُ
تصنع العش وتسعى فى البكور
عيشها فى رزق مَنْ ؟
وهى أيضا صنع مَنْ ؟

* * *

حوت الأرض أفانين الشجرِ
بين ألوان وطول وقصر !!
وغصون مورقات وثمر
منبت الأشجار مَنْ ؟
راسم الألوان مَنْ ؟

* * *

وترى الشمس عروس المشرق
وجمال البدر عند الأفقِ

سأبْحَا فِي الطِّيلَسَانِ الْأَزْرَقِ

الدَّرَارَى صَنَعَ مَنْ ؟!

وَالسَّمَوَاتِ لِمَنْ ؟!

* * *

دَاعَبَ النِّحْلُ مِنَ الزَّهْرِ شَذَاهُ

وَأَحَالَ الْوَرْدَ شَهِدًا فِي رَبَاهُ !!

وَبَنَتْ هِنْدَسَةُ النَّمْلِ قَرَاهُ

مُرْشِدُ النِّحْلَةِ مَنْ ؟!

مُلْهِمُ النَّمْلَةِ مَنْ ؟!

* * *

الْجَنِينُ اسْتَقْبَلَ الرِّزْقَ الْجَدِيدَ ؟!

وَتَوَالَى وَهُوَ فِي الْمَهْدِ السَّعِيدِ !

قَبْلَ أَنْ تَنْبُتَ أَسْنَانُ الْوَلِيدِ

أطعمته يد مَنْ ؟!
صَوَّرَتْهُ يد مَنْ ؟!

* * *

لم يا مخلوق آثرت الجحود ؟!
كُنْتَ معدوماً فَمِنْ أَيْنَ الوجود ؟!
أَهْيَ الصُّدْفَةُ أَمْ رَبِّ ودود
قبله فى الكون مَنْ ؟!
بعده فى الملك مَنْ ؟!

* * *

لو تنهايتم إلى سر الحياه
وصنعتم كائنا حيا نراه !!
لم نزد إلا يقينا بالاله

* * ومن أجمل ما قرأت كذلك حول موضوع :

البراهين الدالة على وجود الخالق

سبحانه وتعالى

ما قاله صاحب كتاب (معارج القبول) حول « إثبات ذات الرب جل وعلا » حيث يقول : فإن هذه العوالم العلويات والسفليات لا بد لها من موجد أوجدها ويتصرف فيها ويدبرها . ومحال أن توجد بدون موجد ، ومحال أن توجد أنفسها . قال الله تبارك وتعالى فى مقام إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية :

* ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (٣٥) أَمْ خُلِقُوا
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿ (١)

قال ابن عباس رضى الله عنهما : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ ﴾ أى : من غير رب ، ومعناه : أخلقوا من غير شيء خلقهم فوجدوا بلا خالق ، وذلك مما لا يجوز أن يكون ؛ لأن تعلق الخلق بالخالق من ضرورة الاسم ، فلا بد له من خالق ، فإن أنكروا الخالق لم يجز أن يوجدوا بلا خالق ﴿ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ لأنفسهم ،

(١) الطور : ٣٥ و ٣٦ .

وذلك فى البطلان أشد ؛ لأن ما لا وجود له كيف يخلق ؟ فإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقا فليؤمنوا به ﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ وهذا فى البطلان أشد وأشد ؛ فإن المسبوق بالعدم يستحيل أن يوجد بنفسه ، فضلا عن أن يكون موجداً لغيره ، وهذا إنكار عليهم فى شركهم بالله عزوجل وهم يعلمون أنه الخالق لا شريك له ﴿ بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ ﴾ أى : ولكن عدم إيقانهم هو الذى يحملهم على ذلك .

* وعن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى المغرب ^(١) بالطور ، فلما بلغ هذه الآية : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ ^{٢٥} أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُؤْقِنُونَ ﴾ ^{٢٦} أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُونَ ﴾ ^(٢) - كاد قلبى أن يطير . (أخرجاه فى الصحيحين) .

وكثيرا ما يرشد الله تبارك وتعالى عباده إلى الاستدلال على

(١) أى فى صلاة المغرب .

(٢) الطور ٣٥ - ٣٧

معرفة بآياته الظاهرة من المخلوقات العلوية والسفلية كما قال تعالى :

* ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴾ ^(١) ، أى : فيها

من الآيات الدالة على عظمة خالقها وقدرته الباهرة ، مما قد ذرأ فيها من صنوف النبات والحيوانات والوهاد والجبال والقفار والأنهار والبحار ، واختلاف ألْسنة الناس وألوانهم ، وما جبلوا عليه من الإرادات والقوى ، وما بينهم من التفاوت فى العقول والفهوم والحركات والسعادة والشقاوة ، وما فى تركيبهم من الحكم فى وضع كل عضو من أعضائهم فى المحل الذى هو محتاج إليه فيه ؛ لهذا قال الله عزوجل :

* ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ^(٢) ، قال قتادة : مَنْ

تفكر فى خلق نفسه علم أنه إنما لَينَت مفاصله للعبادة ، وكذا فى ابتداء الإنسان من الآيات العظيمة ؛ إذ كانت نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم عظاما إلى نفخ الروح فيه . وقال تعالى :

* ﴿ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ ^(٣) وَالْأَرْضَ

(١) الذاريات : ٢٠

(٢) الذاريات : ٢١

فَرَشْنَهَا فَنِعَمَ الْمَهْدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ يقول الله تعالى منبها على خلق العالم العلوى
والسفلى: (وَالسَّمَاءَ بَيْنَهُمَا) أى جعلناها سقفا محفوظا رفيعا
(بأيد) أى بقوة ، قاله ابن عباس ومجاهد وقتادة والثورى وغير
واحد ، (وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ) ، قال ابن عباس رضى الله عنهما :
لقادرون ، وعنه أيضا : لموسعون الرزق على خلقنا . وقيل :
ذوسعة . وقال ابن كثير : أى قد وسعنا أرجاءها ورفعناها بغير
عمد حتى استقامت كما هى . (وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا) أى
جعلناها فراشا للمخلوقات ، (فَنِعَمَ الْمَهْدُونَ) الباسطون نحن .
قال ابن عباس : نِعَمَ ما وطأت لعبادى . (وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا
زَوْجَيْنِ) صنفين ونوعين مختلفين كالسما والارض ، والشمس
والقمر ، والليل والنهار ، والبر والبحر ، والسهل والجبل ، والشتاء
والصيف ، والجن والإنس ، والذكر والأنثى ، والنور والظلمة ،
والإيمان والكفر ، والسعادة والشقاوة ، والجنة والنار ، والحق
والباطل ، والحلو والمر ، والدنيا والآخرة ، والموت والحياة ، والجماد

(١) الفاريات : ٤٧ - ٤٩

والنامى ، والمتحرك والساكن ، والحر والبرد ، وغير ذلك . (لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ) أى لتعلموا أن الخالق واحد فرد لا شريك له . أه ابن
كثير والبعوى .

وقال تعالى : * ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ
النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ
بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ^(١) . قال أبو
الضحى : لما نزلت : (وَلِلَّهِ كُودُ إِلَهٍ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ
الرَّحِيمُ ^(٢)) قال المشركون : إن كان هكذا فليأتنا بآية ، فأنزل الله
عز وجل : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ تلك فى
ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والشوابع ، ودوران
فلكها ، وهذه الأرض فى كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها
وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع « واختلاف الليل
والنهار » هذا يجىء ثم يذهب ويخلفه الآخر ، ويعقبه ولا يتأخر
عنه لحظة كما قال تعالى :

(١) البقرة : ١٦٤

(٢) البقرة : ١٦٣

﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ ^(١) ، وتارة يطول هذا ، ويقصر هذا ، وتارة يأخذ هذا من هذا ، ثم يتعاضدان ، كما قال تعالى :

﴿ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ ... ﴾ ^(٢) أى يزيد من هذا فى هذا ، ومن هذا فى هذا (وَالْفُلُكِ الَّتِي تَجْرَى فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ) أى فى تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعيش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الإقليم ونقل هذا إلى هؤلاء . ﴿ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ﴾ ^(٣) كما قال تعالى : « وَآيَةٌ لَهُمْ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ » ^(٤) . إلى قوله : ﴿ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٥) ﴿ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ﴾ ^(٦) على اختلاف أشكالها وأنواعها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها ،

(١) سورة يس : ٤٠

(٢) الحديد : من الآية ٦ .

(٣) البقرة - من الآية : ١٦٤ .

(٤) سورة يس : ٣٣ - ٣٦ .

(٦) البقرة - من الآية : ١٦٤ .

وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لا يخفى عليه شيء من ذلك كما قال تعالى : ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ (١) . (وتصريف الرياح) فتارة تأتي بالرحمة ، وتارة تأتي بالعذاب وهي الريح ، وتارة تأتي مبشرات بين يدي السحاب ، وتارة تسوقها ، وتارة تجمعها ، وتارة تفرقه ، وتارة تصرفه ، ثم تارة تأتي من الشمال وهي الشامية ، وتارة تأتي من ناحية اليمن ، وتارة صباً وهي الشرقية ، وتارة دبوراً وهي غربية وغير ذلك والله أعلم ﴿ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِينَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى سائر بين السماء والأرض مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضى والأماكن كما يصرفه تعالى . ﴿ لَا يَنْتَرِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أى فى هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى (لقوم يعقلون) فيعلمون أن لهذه الأشياء خالقاً وصانعاً غنياً بذاته ، وكل ما سواه فقير إليه ، قائماً بذاته ، وكل ما سواه عاجز لا قدرة له إلا بما أقدره ، متصفاً بجميع صفات الكمال ، وكل ما سواه ملازمه النقص ، وليس الكمال المطلق إلا له ، وهو

(١) هود : ٦ .

الله تبارك وتعالى . وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (٢١) وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ السِّنِّكُمْ وَاللَّوْنُكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ ﴾ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمِعُونَ ﴾ (٢٣) وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ (١) .

يقول تعالى : (وَمِنْ آيَاتِهِ) الدالة على عظمته وكمال قدرته أنه خلق أباكم آدم من تراب (ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ) فأصلكم من تراب ثم من ماء مهين ، ثم تصور فكان علقه ، ثم مضغة ، ثم صار عظاما شكله شكل إنسان ، ثم كسا الله تعالى تلك العظام لحما ، ثم نفخ فيه الروح فإذا هو سميع بصير ، ثم

أُخْرِجَ مِنْ بطن أمه صغيراً ضعيف القوى والحركة ، ثم كلما طال عمره تكاملت قواه وحركاته حتى آل به الحال إلى أن صار يبنى المدائن والحصون ، ويسافر فى أقطار الأقاليم ويركب متن البحور ، ويدور أقطار الأرض ، ويكتسب ويجمع الأموال ، وله فكرة وغور ودهاء ومكر ، ورأى وعلم ، واتساع فى أمور الدنيا والآخرة ، كل بحسبه ، فسبحان من أقدرهم وسيرهم وسخرهم وصرفهم فى فنون المعاش والمكاسب وفاتت بينهم فى العلوم والفكر ، والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة .

* وعن أبى موسى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
(إن الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض فجاء بنو آدم على قدر الأرض ، جاء منهم الأبيض والأحمر والأسود وبين ذلك ، والخبث والطيب ، والسهل والحزن وغير ذلك) رواه أحمد وأبو داود والترمذى . وقال حسن صحيح .
﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ﴾ أى خلق من جنسكم إنانا تكون لكم أزواجا ﴿ لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ﴾ كما قال

تعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ (١). يعنى بذلك حواء خلقها الله تعالى من آدم من ضلعه الأقصر الأيسر ، ولو أنه تعالى جعل بنى آدم كلهم ذكورا وجعل إناثهم من جنس آخر من غيرهم إما من جان أو حيوان - لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين الأزواج ، بل كانت تحصل نفرة لو كانت الأزواج من غير الجنس ، ثم من تمام رحمته بينى آدم أن جعل الأزواج من جنسهم ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً﴾ وهى المحبة ﴿وَرَحْمَةً﴾ وهى الرأفة ، فإن الرجل يمسك المرأة إما لمحبة لها أو لرحمة بها بأن يكون لها منه ولد أو محتاجة إليه فى الإنفاق أو للألفة بينهما وغير ذلك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فى عظمة الله وقدرته ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على قدرته العظيمة ﴿خَلَقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أى خلق السموات فى ارتفاعها واتساعها وشفوف أجرامها وزهارة كواكبها ونجومها الثوابت والسيارات ، وخلق الأرض فى انخفاضها وكثافتها وما فيها من جبال وأودية وبحار وقفار وحيوان وأشجار . ﴿وَاخْتَلَفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ يعنى اللغات ، فهؤلاء بلغة العرب ، وهؤلاء لهم لغة

(١) الأعراف : من الآية ١٨٩ .

أخرى ، وهؤلاء كرج ، وهؤلاء روم ، وهؤلاء إفريخ ، وهؤلاء
بربر ، وهؤلاء حبشة ، وهؤلاء هنود ، وهؤلاء فرس ، وهؤلاء
صقالبة ، وهؤلاء خزر ، وهؤلاء أرمن ، وهؤلاء أكراد، إلى غير
ذلك مما لا يعلمه إلا الله عزوجل من اختلاف لغات بنى
آدم ﴿وَالْوَنُكُم﴾ أى واختلاف ألوانكم أبيض وأسود وأحمر ،
وأنتم أولاد رجل واحد، وامرأة واحدة ، وغير ذلك من اختلاف
الصفات والحلى ، لجميع أهل الأرض ، بل أهل الدنيا منذ خلق
الله آدم إلى قيام الساعة ، كل له عينان وحاجبان وأنف وجبين وفم
وخدان ، وليس يشبه واحد منهم الآخر ، بل لابد أن يفارقه بشيء
من السمات أو الهيئة أو الكلام ظاهرا كان أو خفيا يظهر عند التأمل ،
كل وجه منهم أسلوب بذاته وهيئته لا تشبه أخرى ، ولو توافق
جماعة فى صفة من جمال وقبح لا بد من فارق بين كل واحد
منهم وبين الآخر ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ
مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَآبِغَاؤُكُمْ مِّنْ فَضْلِهِ ؕ ﴿ أى ومن الآيات
ما جعل الله من صفة النوم فى الليل فإنه فيه تحصل الراحة وسكون
الحركة وذهاب الكلام والتعب ، وجعل لكم الانتشار والسعى فى
الأسباب والأسفار فى النهار وهذا ضد النوم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ

لَقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿١﴾ سماع تدبر واعتبار . ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ﴾ الدالة على عظمته أنه ﴿يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أى تارة تخافون مما يحدث بعده من أمطار مزعجة وصواعق متلفة ، وتارة ترجون وميضه وما يأتى بعده من المطر المحتاج إليه ، ولهذا قال تعالى : ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أى بعد ما كانت هامدة لا نبات فيها ولا شىء فلما جاءها الماء ﴿أَهْزَرَتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ (١) . وفى ذلك عبرة ودلالة واضحة على الميعاد وقيام الساعة ؛ ولهذا قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ، ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ كقوله تعالى : ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ (٢) . وقوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (٣) . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه إذا اجتهد فى اليمين قال : (والذى قامت السموات والأرض بأمره) أى هى قائمة ثابتة بأمره لها وتسخيرها إياها ، ثم إذا كان يوم القيامة بدلت

(١) الحج : من الآية ٥ .

(٢) الحج : من الآية ٦٥ .

(٣) فاطر : من الآية ٤١ .

الأرضُ غير الأرض والسموات ، وخرجت الأموات من قبورها أحياء بأمره تعالى ودعائه إياهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴾ أى من الأرض . كما قال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقْنُتُونَ إِنْ لَيْسَ إِلَٰهٌ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ (١) وقال تعالى : ﴿ فَأَنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴾ (٢) فَإِذَا هُم بِالسَّاهِرَةِ (٣) وقال تعالى : ﴿ إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ (٤) والآيات فى هذا الباب العظيم من الاستدلال بال مخلوقات على وجود خالقها وقدرته وعظمته أكثر من أن تُحصى وأجل من أن تُستقصى ، وفيما ذكرنا كفاية وغنى يغنى عن خلط المناطقة ومقدماتهم ونتائجهم وتناقضهم فيها ، والله تبارك وتعالى أعلى وأكبر وأجل وأعظم من أن يحتاج فى معرفة وجوده إلى شواهد واستدلالات ، فذات المخلوق نفسه شاهدة بوجود خالقه ، حيث أوجده ولم يك من قبل شيئا ، فلم يذهب يستدل بغيره وفى نفسه الآية الكبرى والبرهان الأعظم ؟

(١) الإسراء : ٥٢ .

(٢) النازعات : ١٣ و ١٤

(٣) يس : ٥٣

وشأن الله تعالى أكبر من ذلك، ولم يجحد وجوده تعالى من جحده من أعدائه إلا على سبيل المكابرة ؛ ولهذا قال تعالى فى كفرهم بآياته : ﴿ وَحَمَدُوا بِهَا وَأَسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (١) . فكيف بوجود الخالق تبارك وتعالى . ولهذا لما قال أعداء الله لرسله على سبيل المكابرة لما جاءوهم بالبينات فردوا أيديهم فى أفواههم وقالوا : ﴿ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ۝١ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ... ﴾ (٢) . وهذا يحتمل شيئين : أحدهما أفى وجوده تعالى شك ، فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به ، فإن الاعتراف به ضرورى فى الفطر السليمة ، ولكن قد يعرض لغيرها شك واضطراب ، وأكثر ذلك على سبيل المكابرة والاستهزاء ، فيجب إقامة الحجة عليهم للإعذار إليهم ؛ ولهذا قالت لهم رسلهم ترشدكم إلى طريق معرفته فقالوا : (فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ) الذى خلقها وابتدعها على غير مثال سبق ، فإن شواهد

(١) النمل : من الآية ١٤ .

(٢) إبراهيم : آخر الآية ٩ وصدر الآية ١٠ .

الحدوث والخلق والتسخير ظاهرة عليهما فلا بد لهما من خالق ، وهو الله الذى لا إله إلا هو خالق كل شىء ومليكه ، والمعنى الثانى فى قولهم (أفى الله شك) أى أفى إلهيته وتفرد بوجوب العبادة له شك ، وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له ؟ فإن غالب الأمم كانت مُقرّة بالخالق ، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التى يظنونها تنفعهم أو تقرّبهم ، والجواب لهذا الاستفهام على كلا المعنيين : لا ، أى لا شك فيه .

* * وقد نقل عن الأئمة وعن غيرهم فى هذا الباب :

* عن الإمام مالك رحمه الله تعالى : أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات والنعومات .

* وعن أبى حنيفة رحمه الله تعالى أن بعض الزنادقة سأله عن وجود البارئ تبارك وتعالى فقال لهم : دعونى فإنى مفكر فى أمر قد أخبرت عنه ، ذكروا لى أن سفينة فى البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها ، وهى مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها ، وتخرق الأمواج العظام حتى تخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد . فقالوا :

هذا شيء لا يقوله عاقل . فقال : وَيَحْكُمُ !! هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع ؟ فَبُهِتَ القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه .

* وعن الشافعى رحمه الله تعالى أنه سئل عن وجود الخالق عز وجل ، فقال : هذا ورق التوت طَعْمه واحد ، تأكله الدود فيخرج منه الإبريسيم^(١) ، وتأكله النحل فيخرج منه العسل ، وتأكله الشاء والبقر والأنعام فتلقيه بعرا وروثا ، وتأكله الطيباء فيخرج منه المسك . وهو شيء واحد .

* وعن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله أنه سئل عن ذلك فقال : ها هنا حصن حصين أملس ليس له باب ولا منفذ ، ظاهره كالفضة البيضاء ، وباطنه كالذهب الإبريز ، فبينما هو كذلك إذ تصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح اهـ يعنى بذلك البيضة إذا خرج منها الديك .

(١) أى الحرير .

* وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد :

تأمل فى رياض الأرض وانظرُ

إلى آثار ما صنع المليكُ

عيون من لجين شاخصات

بأحداق هى الذهب السيكُ

على قُضْب الزبرجد شاهدات

بأن الله ليس له شريك

* وقال ابن المعتز ، ويروى لأبى العتاهية - رحمهما الله

تعالى :

فيا عجباً كيف يعصى إلا لـ

ه أم كيف يجحده الجاحدُ ؟

ولله فى كل تحريكة

وفى كل تسكينة شاهدُ

وفى كل شىء له آية

تدل على أنه الواحدُ

* وسئل بعض الأعراب عن هذا وما الدليل على وجود الرب تعالى ، فقال : ياسبحان الله ، إن البعر يدل على البعير ، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير ، فسماء ذات أبراج ، وأرض ذات فجاج ، وبحار ذات أمواج ، ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟

* ومن خطب قس بن ساعدة الإيادى - رحمه الله - وكان على ملة إبراهيم عليه السلام : أيها الناس اجتمعوا فاسمعوا وإذا سمعتم فعوا ، وإذا وعيتم فانتفعوا ، وقولوا - أو إذا قلتم - فاصدقوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، مطر ونبات ، وأحياء وأموات ، ليل داج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهّر ، وبحار تزخر ، وضوء وظلام ، وليل وأيام ، وبر وآثام ، إن فى السماء خبراً وإن فى الأرض عبرا يحار فيهن البصير ، مهاده موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تغور ، وبحار لا تغور ، ومنايا دوان ، ودهر خوان ، كحد القسطاس ووزن القسطاس .

أقسم قس قسماً ، لا كاذبا فيه ولا آثما : لئن كان فى هذا الأمر

رضاً ليكونن سخط ، ثم قال : أيها الناس ، إن لله ديناً هو أحب إليه من دينكم هذا الذى أنتم عليه ، وهذا زمانه وأوانه . ثم قال : مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا فناموا ؟

وفى بعض ألفاظها قال : شرق وغرب ، يتم وخرب ، وسلم وحرب ، ويابس ورطب ، وأجاج وعذب ، وشموس وأقمار ، ورياح وأمطار ، وليل ونهار ، وإناث وذكور ، وبرار وبحور ، وحب ونبات ، وآباء وأمهات ، وجمع وأشتات ، وآيات فى إثرها آيات ، ونور وظلام ، ويسر وإعدام ، ورب وأصنام ، لقد ضل الأنام ، نشء مولود ، ووآد معقود ، وتربية محصود ، وفقير وغنى ، ومحسن ومسىء ، تبا لأرباب الغفلة ، ليصلحن العامل عمله ، وليفقدن الآمل أمله ، كلا بل إله واحد ليس بمولود ولا والد ، وأعاد وأبدى ، وأمات وأحيا ، وخلق الذكر والأنثى ، رب الآخرة والأولى ، أما بعد فيا معشر إباد ، أين ثمود وعاد ؟ وأين الآباء والأجداد ؟ وأين العليل والعواد ؟ كل له معاد . يقسم قس برب العباد ، وساطح المهاد ، لتحشرن على الأفراد ، فى يوم التناد ، وإذا نفخ فى

الصور ، ونُقِرَ في الناقد ، ووعظ الواعظ ، فانتبذ القانط وأبصر
اللاحظ فويل لمن صدف عن الحق الأشهر ، والنور الأزهر ،
والعرض الأكبر ، في يوم الفصل ، وميزان العدل ، إذا حكم
القدير ، وشهد النذير ، وبعد النصير ، وظهر التقصير ، فريق في
الجنة وفريق في السعير .

* وهذا كسرى أنوشروان ملك الفرس يقول وقد صفت
نفسه ، وأشرق فكره يخاطب الفلك : إن بناء أنت سَقْفُهُ عَظِيم ،
وإن بيتا أنت غطاؤه لجليل ، وإن شيئا أنت تظلمه لكبير ، وإن فيك
عجبا للمتعجبين ، فليت شعري ، أَعَلَى عَمَدٍ من تحتك
تستمسك ، أم بمعاليق من فوقك ؟ ولعمري إن مَلِكاً أَمْسَكَتْكَ
قدرته لملك عظيم ، وإنه في استدارتك بتقديره لحكيم خبير ، وإن
من غفل عن التفكير في هذه العظمة لَغَرٌ صغير . وليت شعري :
أيتها الأفلاك : بيم طلوعك حين تطلعين ؟ وبم مسيرك حين
تسيرين ؟ وأقولك حين تأفلين ؟ وعلام سقوطك حين تغيبين ؟ !!
ليت شعري ، أساكنة أم تتحركين ، أم كيف صفتك التي بها
تتصفين ، ولونك الذي به تتسمين ؟ ومن سماك بأسمائك التي
بها تعرفين ؟!

فسبحان من لأمره تنقادين ، وبمشيئته تجرّين ، وبصنعته
استقامتك حين تستقيمين ، ورجوعك حين ترجعين) .

* ولله در الشاعر الأزهرى الشيخ محمد الأسمر رحمه الله
تعالى ، فلقد قال كلاما يكتب بمداد من الذهب على صحائف
من نور ، إن دل على شئ فإنما يدل على أن الرجل كان موحداً ،
وكان من الذين عرفوا الله تبارك وتعالى حق المعرفة ، وفيه يقول
مناجياً ربه سبحانه وتعالى ومثنياً عليه — :

« تعاليت يارب ما أجلك ، خلقت الخلق ، وأجريت الرزق ،
بك ينمو الزرع ، ويدر الضرع ، سبحانك اللهم ما أوسع
ملكك ، وما أعظم سلطانك ، السماء والأرض لك ، والملائكة
الأطهار جندك ، والملوك المتوجون عبيدك ، تبارك وتعاليت ،
صنعت فأعجزت ، وصورت فأحسنت ، الجن والإنس خلقك ،
والجسم والروح عملك ، لا إله إلا أنت ، منحتنا بصائر لا
تنكرك ، وأبصاراً لا تدركك ، يسبح الرعد بحمديك ، ويطرّم
الطنائر بمجدك ، البحار لا تقرر من خشيتك ، والجبال
جامدة من هيبتك ، ولقد جرى النسيم بلطفك ، وتقلب

كل مخلوق فى رحمتك ، تباركت تباركت ، لا أول قبلك ، ولا آخر بعدك ، كيف تخفى والشمس بعض بيناتك ؟ وكيف تدرك والروح بعض أسرارك ؟ ، فأنت الأول والآخر والظاهر والباطن ، تعاليت تعاليت ، آمن بك المؤمن ولم يرك ، وجحدك الجاحد ووجوده شاهد بوجودك ، سبحانك سبحانك ، بهرتنا آلاؤك ، وغاب عنا لآلاؤك ، ماء وحجر ، وأرض وقمر ، وزاحف وطائر ، وصادح وباغم ، أنبت لنا من الأرض عجبا : نخيل وأشجار ، وأزاهير وثمار ، رب ، من أين للورد شذاه ؟ ومن أين للغصن عوده ولحاه ؟ ومن أين للثمار طعومها المختلفة ، وأشكالها المتباينة ، وألوانها المتغايرة ؟ ، من أين كل هذا يارب ؟ سائغ وغير سائغ ، وناصع وفاقع ، تباركت مخرج الخضراء من الغبراء ، وخالق العجب من طين وماء . سبحانك اللهم سبحانك ، جلت عظمتك ، وتعاليت قدرتك ، أعجزت الإنسان بالجبال والنمال ، بل أعجزت الإنسان بذات الإنسان ، عظم ولحم ، وعروق ودم ، وظفر وشعر ، وسمع وبصر ، قلت للسان ذق وهو لحمه فذاق ، وقلت للعين أبصرى وهى شحمة فأبصرت ، سبحانك اللهم ، وهذا

القلب الخافق بم يخفق؟! أشهد أن لا إله إلا أنت رب المشارق
والمغرب ، والنجوم والكواكب ، تباعدت فهي منفصلة ، وتجاذبت
فهي متصلة ، عجزت عقولنا عن الإحاطة ببعض ما خلقت فكيف
تحيط بك ؟ سبحانك سبحانك ! هذه دنياك فكيف آخرتك ؟
وهذا شأن آثارك فكيف شأنك ؟ تباركت من إله صادق ، وتعاليت
من رب حق . »

نعم ، هذا هو الإله العظيم الذى لا شك فى وجوده ، والذى
لن نستطيع أبدا أن نحصى نعمه أو نعدد آثاره علينا وعلى غيرنا من
المخلوقات الأخرى التى جميعها تسبح بحمده سبحانه وتعالى .

تالله لو سجدنا بالعيون له

على شبا (١) الشوك والمحمى من الإبر

لم نبلغ العُشرَ من معْشارِ نعمته

ولا العُشِيرَ ولا جزءا من العُشرِ

لأنه الرب العظيم ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ ﴿وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى﴾ ﴿۳﴾

(١) شبا الشوك : أطرافه

وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿١﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى ﴿١﴾ .

ولهذا كان من الخير لكل إنسان عاقل - ذكرا كان أم أنثى - أن يكون على صلة بهذا الإله الخالق البارئ المصور الذى إذا أراد شيئا قال له كن فيكون ، والذى ﴿.. لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (٢)

وذلك بالإكثار من ذكره سبحانه وتعالى ؛ لأن الذكر الصحيح هو أقرب الطرق إلى الله تبارك تعالى ؛ ففى القرآن الكريم يقول تبارك وتعالى :

* ﴿ فَادْكُرُونِي ، أَدْكُرْكُمْ ... ﴾ (٣)

وقد ورد فى حديث صحيح متفق عليه :

* عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :
يقول الله تعالى : أنا عند ظن عبدي بى ، وأنا معه إذا

(١) سورة الأعلى : ٢-٥

(٢) الشورى : من الآية ١١ .

(٣) البقرة : من الآية ١٥٢ .

ذكرنى ، فإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإن ذكرنى فى ملاء^(١) ذكرته فى ملاء^(٢) خير منهم » .

* وعن أبى الدرداء رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :
(ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها^(٣) عند مليكم ، وأرفعها فى درجاتكم ، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة ، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم ؟) قالوا : بلى ، قال : (ذكر الله تعالى) رواه الترمذى ، قال الحاكم أبو عبد الله : إسناده صحيح .

* وعن عبد الله بن بسر رضى الله عنه أن رجلا قال يارسول الله : إن شرائع الإسلام قد كثرت على فأخبرنى بشيء أتشبث به^(٤) ، قال : (لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله) رواه الترمذى ، وقال : حديث حسن .

(١) جماعة الذاكرين .

(٢) أى الملائكة .

(٣) أى أطهرها وأكثرها ثوابا .

(٤) أى اعتصم حقيقة به أو مجازا .

فاذكر كل هذا - أخوا الإسلام - مع ملاحظة ما جاء في هذه
النصيحة التي يقول فيها الشيخ محمد محرم العمروسي رحمه الله
مرشداً إيانا نحن الذاكرين - إن شاء الله - إلى أكمل الحالات:
تمسكُ بحبل الشرع واضرب بسيفه
رعوس المعاصي واتخذُ منه جوشناً
وبادر إلى إنكار ما كان خارجاً
عن الحق واحذر أن تكون مُدَاهِناً
ولا تجعل الذكر النفيس وسيلة
إلى عرض الدنيا المعرض للِفَناءِ
ولا تجعل المقصود منه تَكْسُباً
فتنحطُ قدراً من عَلاك وتُفتَنّا
ولا تتخذهُ للرياسة سُلماً
فتغضبَ مربوباً ورباً مهيمناً

وتأتى ما تأتى رياءً وسُمعةً
وتتخذ الشرك الخفى تدبناً
وليست بإرخاء الشعور ولا ية
إذا كان منك القلب أسودَ عاطنا
وليست بإظهار التباله خدعة
إذا كان فيك الغش والمكر كامنًا
وغير مفيد لبس تاج وخِرقة
إذا كان إبليس بجسمك ساكنًا
فوحدهوى ليلى لتحظى بوصلها
وترقى بليها وتظفر بالمنى
ومادمت مأسورا لنفسك والهوى
فمازلت فى سجن القطيعة قاطنا
فَطَلَّقْ - هداك الله - نفسا خثونة
طلاقا صريحا بالثلاثة بائنا

فما هي إلا ذات سُوءٍ مُّخْبَأٍ
وأعدى عدو في الحشأ متَوَطَّنَا
وإلْفَدَعُ دَعْوَى الصَّلَاحِ وَلَا تَكُنْ
بغير فلاح للولايَة مُعَلَّنَا
وخلَّ مقاماتِ الرجال لأهلها
وعشُ خاليا فالحبُّ راحته عَنَا
فيا فقراء الوقت مالى أراكمو
أتيتم أمورا لا تحِلُّ بشرعنا
فكم يدَعُ أحدثتموها بجهلكم
وصرتم عليها عاكفين ليومنا
جعلتم طريق القوم رقصا وصيحة
ومنكر أصوات يهيج للغنا
وملء بطون من غذا لم يفد سوى
تجشؤكم - ياقوم - حول بيوتنا

وتخصّيل أرزاق وضرب عوائد
على الناس تأباها قواعد ديننا
وحرفتمو التهليل عن وضعه الذى
أتانا به التنزيل من عند ربنا
وطرقتمو فيه طرائق لم يكن
عليها رسول الله والقوم قبلنا
أكان رسول الله يصحب منشدا
ينادى بأعلى الصوت ليلا مُدِنْدَنَا
فما زدتمو المردان إلا تمرُّدًا
وما زدتمو الشيطان إلا تَشِيطُنَا
ما زدتمو الجهال إلا جهالة
وبعدا عن الأخرى وقربا إلى الدُّنَا
فكن عالما بالشرع واعمل به فَمَنْ
أراد طريقا دون علم فقد جنّى

ولا ينبغي للجاهلين تصدر
ولا نشر أعلام الشريعة بيننا
ألم يعلموا أن الطريق كناية
عن العمل الجارى على وفق شرعنا
وذبح النفوس الضاريات بمُدِيَّة
من الخلق حتى لا تميل إلى الخنا
وزهد عن الدنيا وعن شهواتها
وعمن يراها أكبر الهم مُقْتَنَى
وجوع وصمت واعتزال وفكرة
بها حضرة الرحمن تدخل آمنا
وذكر بنار الشوق يحرق خاطرا
ويغرق فى بحر المدامع أعينا
يكون بجهد واجتهاد وهمة
مُشَمَّرَةٌ لا بالتكاسل والونى

وعلم وحلم واقتداء بعارف
دسائس للشيطان والنفس والدُّنَا
فمن لم يصاحب شيخَ صدق ومُخلصاً
يكون له الشيطان شيخاً ملقناً
فَأَخْلَصْ - هداك الله - تخلص فهذه
طريقتنا الغراء دانية الجنى

* * فافهم هذه النصيحة - أخا الإسلام - وذكر بها هؤلاء
الأدعياء الذين يزعمون أنهم من أهل الطريق السوى وهم فى
الحقيقة من أهل الطرق الأخرى التى لا توصل إلا إلى النار ؛ لأنها
تخالف شرع الله ﷻ وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١﴾ .
* وقد قرأت أن سيدى إبراهيم الدسوقى - رحمه الله تعالى -
كان إذا أخذ العهد على فقير يقول له : يا فلان اسلك طريق
النسك على كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ ، وإقام الصلاة وإيتاء
الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج إلى بيت الله الحرام ، واتباع جميع

(١) الكهف ، من الآية : ١٠٤ .

الأوامر المشروعة والأخبار المرضية والاشتغال بطاعة الله تعالى قولاً
وفعلاً واعتقاداً ، ولا تنظرياً ولدى إلى زخارف الدنيا ومطاياها
وقماشها ورياشها وحظوظها ، واتبع نبيك محمداً ﷺ فى أخلاقه ،
فإن لم تستطع فاتبع شيخك ، فإن نزلت عن ذلك هلكت مع
الهالكين .

* وكان الجُنيدُ - رحمه الله تعالى - يقول : من لم يسمع
الحديث ويجالس الفقهاء يأخذ أدبه عن المتأدبين أفسد من اتبعه ..
وكان يقول : علمنا هذا مقتد بالكتاب والسنة ..

* ولله در شيخنا وإمامنا الشيخ محمود خطاب السبكي -
رحمه الله تعالى - فلقد قال فى كتابه : (المقامات العلية) كلاماً
هاماً ، جاء فيه :

اعمل بآثار النبى فإن بها النور المبين
واقبل نصيحتها ففيها العز والشرف المكين
واشدد يمينك بالشرعة إنها السبب المتين

**** فلاحظ كل هذا - أخوا الإسلام - وقل لهؤلاء المبتدعين الضالين المضلين الذين يرقصون ويطنلون ويمزغون بدعوى أنهم يذكرون:**

ليس التصوف بُسَ الصوف ترقعه
ولا اهـتزازاً إذا غَنَى المغنُّونا
بل التصوفُ أن تصفو بلا كدر
وتتقى الله والقُرآن والدينَا

**** هذا ، وإذا كان لنا بعد هذا التقديم الذى كان لابد منه حتى نتعرف من خلاله على عظمة الخالق سبحانه وتعالى ونعرف الأدلة النقلية والعقلية على وجوده من خلال آياته البينات التى من أهمها أنفسنا ، فهى من أكبر الأدلة الباهرة على وجود الخالق المبدع سبحانه تعالى :**

أريد بعد كل هذا ، وقبل أن ننتقل إلى (موضوع الكتاب) وهو : الواجب ، والمستحيل ، والجائز فى حق الله تبارك وتعالى -

أن نقف على بعض الملاحظات الهامة المتعلقة بهذا الموضوع ،
وهي (١)

حقيقة المعرفة والتقليد والدليل

فأما المعرفة فهي : (إدراك جازم مطابق للواقع ناشئ عن دليل)
كاعتقاد من توصل بالدليل إلى أن البعث حق (فإدراك) جنس
يشمل الجازم وغير الجازم ، والمطابق للواقع وغير المطابق ، والناشئ
عن دليل والخالى عن الدليل (وغازم) : قيد أول يُخرج الظنَّ
والشكَّ والوهم فليست معرفة (ومطابق للواقع) : قيد ثان : يخرج
الإدراك الجازم المخالف لما فى الواقع فليس معرفة بل جهل مركب
كاعتقاد الفيلسفى قَدَمَ العالم (وناشئ عن دليل) : قيد ثالث
يخرج الإدراك الجازم المطابق للواقع الخالى عن الدليل ، فليس
معرفة بل هو تقليد .

وأما التقليد فهو : (الأخذ بقول غير المعصوم واعتقاده من
غير معرفة دليل له) فإذا أخبرك شخص غير معصوم بأن البعث حق

(١) كما جاء فى مذكرات التوحيد ، لفضيلة الشيخ حسين عبد الرحيم مكى ، أكرمه
الله تبارك وتعالى .

فاعتقدت هذا الحكم من غير أن تعرف له دليلا كنت مقلدا له فى ذلك الحكم .

وأما الدليل : فيراد به عند المتكلمين ما يوصل إلى اليقين بعقائد التوحيد، وهو قسمان : نقلى وعقلى . فالنقلى آيات القرآن الصريحة فى دلالتها والأحاديث المقطوع بصحة روايتها ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ ^(١) فإنه يوصل إلى اليقين بثبوت القدرة لله تعالى ، وقوله ﷺ (أنا العاقب فلا نبى بعدى) فإنه يوصل إلى اليقين بأنه عليه السلام خاتم النبيين .

والدليل العقلى : ما لم يكن من كتاب أو سنة ، وهو قسمان : تفصيلى وإجمالى ، فالدليل التفصيلى هو المقدور على تقريره وتفصيله ودفع الشبهة الواردة عليه ، كقول العالم : دليل وجود الله هذه المخلوقات ، فإن العالم يقدر على تفصيله بقوله : هذه المخلوقات حادثة فلا بد لها من مُحدث ، وذلك المحدث الموجود يجب أن يكون

(١) نهاية ثمانى آيات ، ثلاث منها فى سورة البقرة ، وأرقامها :

٢٠ و ١٠٩ و ١٤٨ - كما أنها نهاية الآية ١٦٥ : آل عمران ، والآية ٧٧ : النحل / والآية

٤٥ النور / والآية ٢٠ : العنكبوت / والآية الأولى من سورة فاطر

وجوده لذاته وهو الله ، وإذا وردت عليه شبهة أمكنه دفعها ، فالأدلة العقلية التي يستدل بها العالم أدلة تفصيلية ، فَصَلَّتْ بالفعل أم لم تُفَصِّل .

والدليل الإجمالى : هو المعجوز عن تقريره وتفصيله ودفع الشبهة عنه ، كقول العامى : دليل وجود الله هذه المخلوقات ؛ فإن العامى يعجز عن تقريره وتفصيله ، وإذا وردت عليه شبهة لا يستطيع دفعها ، فالأدلة العقلية التي يستدل بها العامى أدلة إجمالية لعجزه عن تفصيل الأدلة ودفع الشبهة عنها .

المعرفة والتقليد فى عقائد التوحيد

وقد اختلف العلماء فى كفاية التقليد فى عقائد التوحيد وعدم كفايته ، فذهب جماعة إلى أن التقليد لا يكفى فى العقائد ولا يحصل الإيمان ، وأن المقلد فى العقائد غير مؤمن عند الله وعندنا ، فلا يدخل الجنة ، ولا نعامله معاملة المسلمين ، وبنوا هذا على أن الدليل فى العقائد واجب وجوب الأصول ، وأنه شرط لصحة الإيمان ، وهذا المذهب هو خلاف الراجح .

ودليلهم : أن المكلف مطالب بالمعرفة ، والمعرفة اعتقاد جازم مطابق للواقع ناشئ عن دليل ، وبانتفاء الدليل تنتفى المعرفة ، ومتى انتفت المعرفة انتفى الإيمان ؛ لأن الإيمان إما نفس المعرفة أو حديث النفس التابع للمعرفة .

وذهب آخرون إلى أن التقليد يكفى فى العقائد ويَحْصُلُ الإيمان المطلوب ، وأن المقلد مُؤْمِنٌ عند الله وعندنا ؛ لأن المطلوب التصديق بالعقائد ، وقد تحقق ذلك من المقلد إلا أنه إذا كان قادرا على الدليل يَأْثِمُ بتركه كما يَأْثِمُ بترك نحو الصوم ، وبنوا هذا على أن الدليل فى العقائد واجب وجوب الفروع ، وأنه غير شرط لصحة الإيمان بل لكماله ، وهذا هو المذهب الراجح .

ودليلهم : أن المكلف مُطَالَبٌ بالإيمان ، والإيمان قد بينه المصطفى ﷺ حين سئل عنه بقوله : (أن تؤمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله) - الحديث ، فذكر عليه السلام التصديق مجردا عن الدليل ، فلا يكون الإيمان متوقفا على الدليل ، والمقلد وَجِدَ منه التصديق الجازم بالعقائد فيكون آتيا بالمطلوب .

والدليل الذى اختلفوا فى أنه شرط لصحة الإيمان أو غير شرط هو الدليل الإجمالى ؛ لأنه الميسور لعامة الناس ، أما الدليل التفصيلى فلا خلاف بينهم فى عدم توقف الإيمان والمعرفة عليه ، وأنه ليس واجبا عينيا على كل مكلف ؛ لأنه ليس مقدورا إلا للعلماء ، بل هو واجب كفائى لدفع الشبه الواردة على العقائد ، فإذا أتى به البعض سقط الوجوب عن غيره .

حقيقة الإيمان وبيان المذاهب فيه

الإيمان لغةً مطلق التصديق ، وشرعا فيه مذاهب ، والمشهور منها مذهبان : أحدهما الأشاعرة والماتريدية وهو أن الإيمان (تصديق النبى ﷺ بالقلب فيما عُلِمَ مجيئه به من الدين بالضرورة) أى التصديق بكل ما اشتهر بين المسلمين أنه من دين نبينا محمد ﷺ وصار العلم به يشابه العلم الحاصل بالضرورة يعلمه العامة من غير افتقار إلى نظر واستدلال كوجود الله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وكوجوب الصلاة والزكاة ، وحرمة الخمر والزنى ويكفى التصديق الإجمالى فيما يلاحظ إجمالا . كغالب الملائكة ، والأنبياء ، والكتب . ويشترط التصديق التفصيلى فيما

يلاحظ تفصيلا ، كسيدنا محمد ، وإبراهيم ، وعيسى ، وجبريل ،
وميكائيل ، والقرآن ، والتوراة ، والإنجيل .

والمراد بتصديق النبي : الإذعان والقبول لما جاء به ، وترك
العناد والتكبر ، ولا يكفي مجرد اعتقاد صدق النبي ؛ فإن كثيرا ممن
كانوا في زمنه عليه السلام ، كانوا يعتقدون صدقه ومع ذلك لم
يكونوا مؤمنين ؛ لأنهم لم يذعنوا له ، ولم يقبلوا ما جاء به ؛ ولم
يتركوا العناد والتكبر . قال تعالى :

﴿ ... يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ
الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

﴿ وَحَدِّثْ إِلَىٰهَا وَاسْتَيْقِنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُظُمًا ... ﴾ (٢) .

وعلى هذا المذهب : فالنطق بالشهادتين والأعمال الصالحة
غير داخلين في حقيقة الإيمان ؛ لأنه مجرد التصديق بالقلب .
بل الأعمال الصالحة شرط كمال للإيمان . والنطق بالشهادتين
شرط لإجراء الأحكام الدنيوية بالنسبة لكافر يريد الدخول في

(١) البقرة : من الآية ١٤٦ .

(٢) النمل : من الآية ١٤ .

الإسلام ؛ لأن الإيمان خفى فلا بد له من علامة ، وهى النطق بالشهادتين فى حق القادر على النطق أو ما يقوم مقام النطق بهما فى العاجز عن النطق .

فمن صدق بقلبه من الكفار ونطق بالشهادتين فهو مؤمن عند الله وعندنا . فيستحق الجنة ونعامه معاملة المسلمين . ومن صدق بقلبه منهم ولم ينطق بالشهادتين وهو قادر على النطق فهو مؤمن عند الله فيستحق الجنة ، وليس بمؤمن عندنا فلا نعامله معاملة المسلمين . أما من بلغ من أولاد المسلمين فإن النطق بالشهادتين غير شرط لإجراء الأحكام الدنيوية عليه . بل هو مؤمن عندنا ولو لم ينطق بهما مدة حياته ؛ لأن الأصل فيه الإيمان . إلا إذا ظهر عليه ما يدل على عدم إيمانه ، فنحكم عليه بالكفر .

والنطق بالشهادتين واجب وجوب الفروع مرة فى العمر على كل مكلف كحمد الله تعالى والصلاة على النبي ﷺ ، فمن تركه يائمه .

المذهب الثانى فى حقيقة الإيمان هو ما نقل عن الإمام أبى حنيفة ، واشتهر عن أصحابه وبعض الأشاعرة ، وهو أن الإيمان :

(تصديق بالقلب ونطق بالشهادتين) فهو مركب من جزأين ولا يتحقق إلا بهما معا ، إلا فى حق العاجز عن النطق والمكره فإن إيمانها يتحقق بتصديق القلب ، ولا يتوقف على النطق بالشهادتين ، فالتصديق جزء لا يحتمل السقوط أصلا ، والنطق بالشهادتين جزء يحتمل السقوط عند العجز أو الإكراه ، قال تعالى :

﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (١) .

﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ (٢) .

حقيقة الإسلام وبيان المذهب فيه

الإسلام لغة مطلق الانقياد . وشرعا فيه مذهبان : أحدهما لجمهور الأشاعرة وهو : أن الإسلام (الامتثال الظاهرى لأوامر الشرع ونواهيه وقبولها وعدم ردها) سواء أعمل الممثل بمقتضى تلك الأوامر والنواهي أم لم يعمل .

وعلى هذا المذهب فالإسلام والإيمان متغايران ؛ لأن الإسلام هو الامتثال الظاهرى ، والإيمان هو التصديق الباطنى ، إلا أنهما

(١) البقرة : من الآية ٢٨٦ .

(٢) النحل : من الآية ١٠٦ .

متلازمان فى التحقق بحسب الشرع ،

فلا يوجد إسلام معتبر شرعا بدون إيمان ، وبالعكس ، ولا يوجد مسلم ناج ليس بمؤمن ، وبالعكس ، وقد يوجد إسلام بدون إيمان كما فى المنافقين ، إلا أن هذا الإسلام غير معتبر شرعا ولاينجى صاحبه .

ثانى المذهبين فى حقيقة الإسلام مذهب جمهور الماتريدية وبعض محققى الأشاعرة ، وهو أن الإسلام شرعا : (الإذعان الباطنى والتصديق بما جاء به النبى محمد ﷺ مما علم من الدين بالضرورة) .

وعلى هذا المذهب فالإسلام والإيمان متحدان فى المعنى ومتغايران فى اللفظ ، والنطق بالشهادتين دليل على ما فى القلب من الإيمان والإسلام .

ما اعتبره الشارع منافيا للإيمان

اعتبر الشارع الحكيم أمورا تنافى الإيمان ، يدل وجودها على فقد الإيمان من قلب مرتكبها ، منها السجود لصنم ووصف الله

تعالى بما لا يليق بذاته المقدسة ، وسب أنبيائه وملائكته وكتبه ،
والاستخفاف بالمصحف والكعبة ، والاستهزاء على الشريعة
واستحلال المحرم المجمع على تحريمه كشرب الخمر ، وإنكار ما
علم من الدين بالضرورة كإنكار وجوب الصلاة ، فمن اتصف
بنحو هذه الأمور حكمنا عليه بالكفر ؛ لأن وجودها دليل على أن
قلبه غير عامر بالإيمان . وهكذا كما ترى - أخوا الإسلام - كان
لابد أن تكون على علم بكل تلك الأساسيات العقائدية التي يجب
على كل مكلف ذكر أو أنثى ، حر أو رقيق أن يعتقدها ، فيجب
عليه أن يعرف الصفات الواجبة لله تعالى ، وأن يعرف الصفات
الواجبة للأنبياء والرسل ، والمستحيلة عليهم ، والجائزة في حقهم
عليهم الصلاة والسلام ، وأن يعرف ما جاء في الكتاب والسنة من
أحوال الموت والقبر وما بعدهما . ومن لم يعرف ذلك ^(١) فليس
بمسلم ، ويخلد في نار جهنم .

(والمعرفة) هي الإدراك الجازم المطابق للواقع عن دليل
(والواجب) الأمر الثابت الذي لا يقبل الانتفاء ككون الجسم

(١) كما جاء في الجزء الأول من (الدين الخالص) . م

متحركاً أو ساكناً ، وكونه صغيراً أو كبيراً ، وكونه ناعماً أو خشناً .
ونحوه مما لا بد للجسم منه (والمستحيل) الأمر المنفى الذى لا يقبل
الثبوت ككون الجسم متحركاً ساكناً أو طويلاً قصيراً ، أو حيواناً
جماداً فى آن واحد (والجائز) ما يقبل الثبوت والانتفاء ككون
الجسم صغيراً فى وقت كبيراً فى وقت آخر ، وكونه قصيراً فى
وقت طويلاً فى آخر ، وكونه حياً فى وقت ميتاً فى آخر .

* * وإذا كان لنا بعد هذا أن ندور حول :

الواجب فى حق الله تبارك وتعالى

فإنه يجب على المكلف أن يعتقد أن الله تعالى متصف
بالصفات الجليلة القديمة الثابتة بالأدلة التفصيلية وهى ثلاث
عشرة :

إليك بيانها ، كما جاء فى الجزء الأول من الدين الخالص -
بتصرف وإضافات ^(١) :

١ - الوجود : فهو تعالى موجود بلا ابتداء قبل وجود جميع
الحوادث من عرش وكرسى وسموات وسائر العالم (والدليل)

(١) من المراجع التوحيدية الصحيحة .

على ذلك خلقه تعالى السموات وما فيها من الكواكب والملائكة ،
والأرض وما فيها من الجبال والرمال والأشجار والأحجار والبحار
والأنهار والحيوانات والجمادات ؛ لأن الصنعة لا بد لها من صانع
موجود . وقد قال الله عز وجل : ﴿ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمُ خَلِيقُ
كُلِّ شَيْءٍ ۖ ﴾ ^(١) ، ومن البديهي أن موجد الشيء لا يكون
معدوما ؛ لأن المعدوم لا يعطى الوجود .

* * * ومن أجمل البراهين التي قرأتها لبعض الفلاسفة والتي
نستطيع بها الاستدلال على وجود الخالق سبحانه وتعالى ^(٢) :

* ما قاله الفيلسوف الفرنسي ديكارت (١٥٥٦ - ١٦٥٠) :
(إن فكرة الألوهية موجودة في أذهاننا ، ووجودها الذهني دليل
على وجود حقيقة خارجية هي مصدرها) .

وقال : (إن هذه النفوس التي تدرك ذاته تعالى موجودة يقينا ،
ولا يصح أن يكون وجودها صادرا عنها ؛ لأنني - وأنا الذي يتصور
الكمال في أجلى مظاهره - لو أوجدت نفسي لمنحتها أعظم قسط
منه مع أنها في الواقع ناقصة) .

(١) غافر، من الآية : ٦٢ .

(٢) كما جاء في كتاب (البحوث الدينية التوحيدية) طبعة دار المعارف بمصر .

* وقال مالبيراش الفرنسى (١٦٣٨ - ١٧١٥) :

(الله هو الموجود والحق والفاعل الوحيد ، وليس وجوده -
جل شأنه - فى حاجة إلى إثبات ؛ لأن فكرة الألوهية الماثلة فى
أذهاننا جميعا ، والتي تدركها مباشرة ، وبدون واسطة - تستلزم
الوجود ، ولا يمكن أن يكون العدم موضوعا لتفكيرنا بحال) .

* وقال بينتر الألمانى (١٦٤٦ - ١٧١٦) :

(هناك فرق بين الممكن والواقعى والضرورى ، فالأول ما
احتمل الوجود والعدم ، والثانى ما وجد بعد عدم ، والثالث هو
الموجود أزلا الذى يستحيل ضده ، والذى استغنى عن البواعث
والعلل ، ومبدأ السبب الكافى يقضى بأن الممكن لا يصبح واقعا
إلا بواسطة علة أخرى ضرورية تمنحه الوجود ، فوجود العالم دليل
البارئ جل شأنه ، الذى صيره واقعا بعد أن كان محتملا للوجود
والعدم) .

* وفى نقاش الماديين يقول الأستاذ العقاد رحمه الله :

(وما من مذهب اطلعت عليه من مذاهب الماديين إلا وهو
يوقع العقل فى تناقض لا ينتهى إلى توفيق ، أو يلجئه إلى زعم لا

يقوم عليه دليل ، فالقول بالتطور فى عالم لا أول له خرافة تعرض عنها العقول ؛ لأن ابتداء التطور يحتاج إلى شىء جديد فى العالم القديم ، وحدوث التطور بغير ابتداء تناقض لا يسوغ فى اللسان ، فضلا عن الفكر والخيال ، والقول بأن المادة تخلق العقل ، كالقول بأن الحجر يخلق البيت ، وأن البيت يخلق الساكن فيه ، وأيسر من ذلك عقلا ، بل ألزم من ذلك عقلا أن يقال : إن العقل والمادة موجودان وإن أحدهما بأن يسبق الآخر ، ويخلقه هو العقل ؛ لأن المادة لا توجد ما هو أفضل منها ، وفاقد الشىء لا يعطيه) .

وبهذا ندرك الفرق بين وجود الله ووجود العباد ، فوجود الله واجب للذات ، لا يقبل الانتفاء ، فلا بداية له ولا نهاية ، أما وجود العباد فجائز يقبل الثبوت والانتفاء وله بداية ونهاية ، فهم يوجدون بعد العدم ، وينتهى وجودهم متى أراد الله .

ولهذا ، فقد جاء فى بداية البحث المفيد ، تحت عنوان :

ما يجب فى حق الله وما يستحيل عليه

أن الصفات التى يجب ثبوتها لله تعالى أنواع ثلاثة :

١ - صفة نفسية : لا تتحقق الذات إلا بها ، وهى صفة الوجود .